الأسلحة

إذا كان العرب قد عملوا على تحسين جيادهم سعياً إلى المنفعة والجمال والتقوى فى آن واحد ، فإنهم أيضاً ولنفس تلك الدواعى ، قد تفننوا فى صياغة أمضى الأسلحة وأبدعها ، لمقارعة أعدائهم وأعداء الله .

وإن إقليما ، فيه الصيد هو الوسيلة للعيش غالبا ، وفيه تنشأ المشاحنات المسلحة لأوهى الأسباب بين أهله ، مثل هذا الإقليم ، لا عجب أن يغدو القوس فيه والسهم ، والرمح والسيف — وهى قناصة الصيد محرزة النصر — موضع الإجلال والتقدير ، وتكون الدروع الجيدة فيه ، كالجياد العريقة ، مثار الاحترام والحسد ، والرهبة والمجد . ولذلك أشاد الشعراء بفضل الأسلحة ، فى قصائد طويلة النفس ، كما ترنموا بسمو الجياد .

وسرعان ما تملك «الشعب الشاعر» دافع آخر إلى الاعتزاز بالأسلحة ، فبعد أن كان يستخدم الأسلحة فى قضاء حاجات أصبحت يوما تلو يوم مشروعة ، ازداد حبه الهاوى الخبير الراغب فى الترف وجمع الطرف ، ولم يعد يحبها لما تجلبه من نفع فحسب ، بل بات يحبها لذاتها ، ولجمالها الخاص ، ولما تنطوى عليه من سحر ، ولما تحقق له من فرح ونشوة . ثم أفضى به هذا الشغف — فيما يبدو — إلى التسامى بآلات الموت تلك ، وتوسم رموز الحب فيها ؛ فالقوس تحكى انحناءته اللطيفة « حاجبيها » ،

والسهام لا تصيب ولا تصمى كما تصيب « سهام العيون النجل » وتصمى ، والرمح أسمر مستقيم مرن « كجسم الحبيبة اللدن يثنى رقة وقد أنشته نفحات الحب » ، والسيف يتلألأ فى المعمعة وهو يشخب دما فيذكرنى « الابتسامة الساحرة التى انفرجت عن شفتين من العقيق وأسفرت عن صفين من اللؤلؤ . . . » ولقد فرض على أهل الشرق كلفهم بالمبالغة أن يوغلوا فى التشبيهات إلى أبعد مدى ممكن ، وأن يخلعوا على الأسلحة الجيدة شخصية قائمة بذاتها ويثبتوا أصلها ونسبها ، ويرصعوها بالجواهر إمعانا فى تشبيهها بالحرائر الكريمات المحتد ، اللواتى يزيدهن حسنا وجمالا ، بهاء ما يتقلدنه من اللآلىء والأحجار النفيسة . وأطلقوا على السيوف والرماح والدروع أسماء ، ونقبوا عن تاريخ صانعها مهما غاب فى ليل الزمن وأياً كان هو إنساً أو جناً ، وأحاطوها بالأساطير كما طعموها بدقيق الزخارف . ورقشوا النصال ، واتخذوا من الذهب أو الفضة مقابض للسيوف ، وحلوها بالياقوت والماس .

وأخيراً فرض الدين على المسلمين أن يتقنوا فن الحرب ؛ فلقد كان جوهريا — فى الواقع — ألا يهملوا أى شيء خليق بأن يهيء لهم الفوز . ودعا النبى إلى الاستهانة بالخطر ، والإيمان بالنصر ، وإلى اقتناء الخيل الأصيلة والأسلحة الكريمة ، ووعد من يفعل ذلك ثواب الله ورحمته[1] .

---

(١) قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » الآية ٤٥ . سورة الأنفال . =

ولم ينعدم مع ذلك الفلاسفة الجبريون الذين بينوا بمنطقهم المحكم ألا جدوى من استكمال الأسلحة والتثقل بالدروع ، ما دام القدر — لا السلاح — هو الذى يقتل أثناء الحرب ؛ أفلا يخطف الردى من حُمّ قضاؤه مهما فعل ؟ أو لا يبقّى الموت على من ينبغى ألا يصيبه مهما تعرض للخطر ؟[1] وكان الرد على أولئك الجبريين أنه لا يوجد حقاً ما يمنع أو يؤخر وقوع المكتوب ، ولكنه يحسن بالمرء أن يحتاط ما استطاع[2] لكى « يسد طريق القلق الذى قد يبعث الخوف والتخاذل » . على أن الحجة الفاصلة كانت الاقتداء بالنبى الذى اقتنى — رغم إيمانه بالقدر — أسلحة ممتازة كان يتدجج بها فى جميع غزواته .

وقد نقل لنا الرواة أسماء وأوصاف أشهر تلك الأسلحة وأنفسها . فمن السيوف أربعة : ذو الفقار ، وهو ذو قبضة محلاة بالفضة ، والقلزم (سيف عمرو بن معيد يكرب) والرسوب (سيف رسول الله صلى الله

= وقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ، الآية ٦٥ سورة الأنفال .

وقال تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم لا يفقهون » الآية ٦٥ من سورة الأنفال .

(١) قال تعالى : « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » الآية ٥١ . سورة التوبة .

(٢) قال تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ١٩٥ — سورة البقرة .

عليه وسلم) والقاضب ، وقوس أطلق عليه اسم « الكتوم » وعلى جعبته اسم « الكافور »[1] ، ودرع هى « البتراء »[2] وقدم لنا الرواة صورة محمد فى واقعة أحد وعلى رأسه الخوذة ، وعلى صدره درع نصفى ، وفى يده الرمح وعلى كتفه المجن ، فى حين يتدلى غمد سيفه من حزام جلدى ذى ثلاث حلقات من الفضة[3] . . . وإذا أضفنا المنجنيق إلى هذه المجموعة ، تمت لدينا على وجه التقريب قائمة الأسلحة التى استخدمها العرب فى الهجوم وفى الدفاع منذ القرن السابع . وها نحن نستعرضها استعراضا سريعا :

لقد روى صاحب « الأغانى » هذه النادرة التى تجمل لنا مكان بعض تلك الأسلحة المختلفة من تقدير العرب وتقيمهم :

سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، عمرو بن معد يكرب الزبيدى قائلا :

يا أبا ثور ، ألك علم بالسلاح ؟ قال : على الخبير سقطت . . سل عما بدا لك . قال : أخبرنى عن النبل . قال : منايا تخطئ وتصيب . قال : فأخبرنى عن الرمح . قال : أخوك ، وربما خانك . قال : أخبرنى عن الترس . قال : ذاك مجن ، وعليه تدور الدوائر . قال : أخبرنى عن

---

(١) الغزالى : المرجع السابق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية .

(٣) على فصل سيفه . نقشت هذه العبارات : « الجبن يذل والفصل يعز . لن ينجو جبان من قدره » (رواية فارسية) . انظر « الروضة الصغا » التى ترجمها إلى الفرنسية

الدرع : قال : مشغلة للفارس ، متعبة للراجل . قال : أخبرنى عن السيف . قال : عنه قارعتك[1] .

ونحن نرى مما سبق أن السيف كان خير سلاح . ولقد استأثر السيف بثناء المقاتلين ومديح الشعراء . ولكن اللغة ذاتها تشهد — شهادة أبلغ من ذلك الثناء وذلك المديح — بما اتخذته السيوف فى نظر العرب من أهمية منذ عهد بعيد ؛ فهنالك عدد كبير من المترادفات يدل على السيف حسب طول نصله أو قصره أو عرضه ، وحسب أثره من طعن أو حسم أو بتر ، وحسب مصدره هندياً كان أو مشرفياً ، وحسب صانعه أهو صراع أو أحنف ، وحسب المصنوع له كالملك ابن ذى يزن . ومن السيوف أيضاً ما ينم بريقه العجيب وقوته الخارقة عن أنه من صنع الجن وهم أشد من البشر وأعلم ، مثل السيف « المعصور » و « المذكر » .

ولا تظنوا أن هذه الأعاجيب كانت وقفا على الشرق وحده . فإن سيف الأمير الفرنسى بودان دى بوفيه (Beaudoin de Beauvais) قد صيغ فوق جبل سيناء ؛ كما تنسب إلى صانع خيالى يدعى « جالان » (Galent)

---

(٤) الأغانى جـ ١٤ ص ١٣٢ . وقد تبدو هذه الإجابات غاية فى البداهة ، ولكن ينبغى تأويلها بمعنى أن قيمة الأسلحة مستمدة من قيمة المقاتل . فلقد أتيح لمعدى كرب أن يبين رأيه فى صورة أوضح ، عند ما طلب إليه عمر بن الخطاب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث بالساعد الذى يضرب به . العقد الفريد جـ ١ ص ٢٠٩ . (تحقيق) .

تلك السيوف التى اشتهرت فى أدب القرون الوسطى — « دورندال » و « فلوبرج » و « فرح » و « عجيب » وقد زعموا أنه أنفق فى شحذها أربعا وعشرين سنة . وأما سيف البطل الوثنى « كورنوماران » فقد صاغه « متوشالح » ذاته ، كما صاغ سيوف العملاق « لوكيفير » الثلاثة ، وتذكر قصيدة «بيت المقدس» حساما صنعه الشيطان[1] فلعل ذلك الشيطان بعينه هو الذى يدين له العرب بالمعصور والمذكر !

ولقد كان السيف فى الغرب كما كان فى الشرق ، وكأنه شخص يخاطبه القوم ويتحرون نسبه ويروون سيرته وأيامه . وكان للسيف اسمه وشعاره : فـ « الفرح » سيف شرلمان ، و « دورندال » سيف رولان ، و « نفيس » سيف الأمير ، و « الماس » سيف توربان ، و « ذوالفقار» سيف النبى ، و « الصمصامة » سيف عمرو بن معدى كرب ، و « ولول » سيف عتاب بن أسعد ، والمقدم و « الركوبى » و « اليمانى » هى السيوف الثلاثة التى وجدها على بن أبى طالب فى معبد أوثان طى[2] .

---

(١) فى البيت رقم ٨٣٥٥ ، راجع جوتييه ص ٧٠٨ و ٧٠٩ .

(٢) ذو الفقار بالفتح سيف العاص بن منبه قتل يوم بدر كافرا فصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثم صار إلى على .

(٣) نقرأ فى الرسالة التى نشرها « كاترمير » عن تاريخ الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، الذى خلف أباه سنة ١٠٣٦ ، أن قادة الأتراك الذين ثاروا على المستنصر قد حرصوا — بعد أن نهبوا قصر الخليفة — على أن يتقاسموا نفيس الأسلاب ، وكان بينها « ذو الفقار » وسيف عمرو بن العاص ، وسيف عبد الله بن وهب وسيف المعز . . . إلخ . وذلك يدلنا على مبلغ اعتزاز المسلمين بالسيوف الشهيرة حتى القرن الثانى عشر .

ولن نطنب فى هذا الموضوع ، وإنما حسبنا أن نقول : إن العرب قد أضفوا على سيوفهم معانى الشرف منذ الجاهلية ، فلما جاء النبى أوجز التعبير عن مشاعرهم باهتمامه بالسيف ، وأضاف حكمة أو وصية دينية ، تنطق بحرصه على حفظ النصال الجيدة بين العرب وحث المسلمين على القتال والموت بالسيف وبجوار السيف ، إذ قال : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »[1] ولكى تلقى السيوف ظلا وارفا ، ينبغى أن تنتضى وأن تكثر ، وأن تتشابك وتتصادم تحت شمس الوغى . . .

على أن سلاحا آخر كان يضارع السيف نبلا وسموا ، ألا وهو الرمح . يقول ديماى : « كان الرمح فى رأى بعض الكتاب أنبل أسلحة الفرسان ، فكان يفضل السيف . ومهما يكن من أمر ، فقد كان حمل الرمح حقاً مقصوراً على الأحرار . »[2] وأما فى بلاد العرب فقد اقترن الرمح بالسيف ، وأشاد الشعراء بفضلهما على السواء ، تشهد بذلك الأبيات التالية :

يقول عمرو بن كلثوم :

نطاعن ما تراضى النـــاس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
بسمر من قنـــا الخطى لدْن ذوابـــل أو ببيض يختلينـــا

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٢٧ .

(٢) ج . ديماى : المرجع السابق ذكره ، ص ٣٩ .

وقال عنترة :

فطعنتـــه بالرمح ثم علوته ... بمهند صافى الحديدة مخزم[1]

وقال أيضاً :

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربًا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة ... بمثقف صدق[2] الكعوب مقوَّم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم

وقد يمل القارئ إذا التزمنا هنا دراسة أنواع الرماح المختلفة (الردينية والسمهرية واليزنية والخطية إلخ . .) ، وحسبنا أن نلتقط بعض أوجه الشبه بين الرمح العربى والرمح الفرنسى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد كانت هامة الرمح العربى بوجه عام سمراء أو خضراء أو زرقاء ، بينما دأب أهل القرون الوسطى فى أوربا على « طلاء خشب الرمح خصوصاً باللونين الأخضر والأزرق »[3]. وأما عادة نكت الرمح فى الأرض إعلانًا عن الرغبة فى المفاوضة[4] ، فإنما هى عادة تبدو فى جوهرها عربية ؛

---

(١) سريع القطع .

(٢) صلب .

(٣) ديماى ، ص ٤٠ .

(٤) رينو دى مونتوبان ، ص ٢٣٦ ، انظر جوتييه ، ص ٧١٤ .

فالعربى يغرس رمحه أمام خيمته ويغرسه أمام خيمة مضيفه ؛ وذلك تقليد قديم درج عليه القوم فى الصحراء . ودون أن نفصل الحديث عن سنان الرمح — الذى اتخذ هنا وهناك أشكالا بعينها ، فهو تارة مثلث عريض ناتىء المحور ، وأخرى على هيئة ورق الشجر[1] ، وثالثه بمثابة حربة قصيرة (تشبه لسان الكلب كما يقول العرب) — ينبغى ألا ننسى فى هذا المقام ذكر اللواء . وهذا جوتييه يقول : « كان يثبت فى أعلى الرمح راية لم تختف إلا فى منتصف القرن الثانى عشر »[2] ، فى حين يميز ابن الأعرابى وغيره من اللغويين بين « اللواء » الذى كان يعلق فى أعلى الرمح ، وبين « العلم » . . . فقد أصاب « لافيس » إذن عند ما حسب أن الحروب الصليبية قد أدخلت فى أوربا « الرمح المزين بالبنود »[3] .

ولقد أجمع المؤرخون العرب على التنويه بما اعتاده القوم فى كل حروبهم من رفع الألوية على رماحهم . وهكذا يفسر قول النبى : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » بمعنى ظل لوائى[4] .

وأول هذا الحديث بأنه تحية أداها النبى للرماح . وينبغى أن نرى فيه قبل كل شىء تشجيعاً وحثاً للناس على البحث عن جدّهم ، والرماح فى أيديهم ، بين مغانم العدو .

---

(١) ديماى ، ص ٣٩ .

(٢) جوتييه ، ص ٧١٠ .

(٣) لافيس ، ج ٢ ، ص ٣٤٦

(٤) صحيح البخارى : باب ما قيل فى الرماح . وهكذا تأوله المؤلف (تحقيق) .

وكما جلا النبي لأتباعه ، فى عبارات رائعة ، فضل الرمح والسيف ، فقد حثهم كذلك على استخدام القوس والسهم . لقد كان يرمى فى حقيقة الأمر ، إلى إذكاء شغفهم بجميع الأسلحة ، غير أنه كان حريصاً على أن يوجه نفوسهم التقية إلى الاعتزاز بما يراه أضمن تلك الأسلحة لتحقيق النصر ، ولذا أشاد بالقوس .

ولقد كانت القوس فى عصر الجاهلية بمثابة رمز للرجولة . فكان كل عربى يقتنى قوساً ولو لم يمتلك رمحاً أو سيفاً . كانت القوس فى متناول أيدى جميع الأغنياء والفقراء على حد سواء ، إذ كانت تصنع من كل صنوف الخشب ، خشب الأرز أو شجر التين أو النبع . ولقد كانت رفيق البدوى ووسيلة عيشه ، وألزم له من القلم للكاتب ، فالسهم السريع هو الذى يصيب الغزال النافر أو الطير الطائر . وهكذا كان القوم يدربون بنيهم على استعمال القوس منذ يستطيعون حمله ، ولم يكن بين الألعاب التى يتهافت عليها الشباب شىء أكثر انتشاراً من الرماية . وكان لهم فى مباريات الرماية قواعد صارمة ، ورهان ، وجوائز تكافئ البراعة والسداد . وبلغ من منزلة القوس أن العربى كان إذا أراد أن يلتزم التزاماً رسمياً ، سلّم قوسه لدائنه . ولم يكن للقوس فى الواقع أية قيمة مادية ، ولكنها كانت ترمز إلى العهد وتمثل الذمة ، وكأنها التوقيع الشرعى الصحيح الذى يسجله الإنسان فى حضرة الموثق والشهود ، حتى كان العار كل العار — كعار الإسبرطى

العائد من المعركة بلا درع — أن يظهر المدين أمام القوم بعد انقضاء أجل الدين ، أعزل من القوس الضامن . ومن هان كذلك ، اعتبر امرءاً لا شرف له ولا عهد ، جباناً لا يستحق أن ينتسب إلى العرب .

ثم أراد محمد أن يبقى لأمته رياضة الرماية بالقوس ، وهى رياضة نبيلة قدّر أثرها الحاسم فى المعارك ، فأبقى على التنافس بالإبقاء على الرهان؛ فإنه بالرغم من نهيه عن جميع ألعاب الرهان ، قد استثنى الرهان فى سباق الخيل وفى الرماية ، ودعم هذا الاستثناء بأحاديث نبوية أصبحت من بعده سنة مرعية . وكان غرضه هو حفظ حياة أنصاره إلى أقصى حد ممكن ، وذلك بعدم تمكين ضربات العدو منهم ، وضمان النصر لهم فى الوقت نفسه من حيث براعتهم فى الرماية . ولقد أثمرت دروسه ، فكان من نتائجها أن الصليبيين قد سارعو منذ عودتهم من الأرض المقدسة — بعد أن حنكتهم الخبرة — إلى إدخال استعمال النبل فى أوربا[1].

ولنذكر فى ختام الحديث عن القسى حديثين شريفين ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اركبوا وارموا . وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا » .

وقال : « كل لهو المؤمن باطل إلا فى ثلاث : تأديبه فرساً ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته ، فإنه حق . إن الله ليدخل الجنة بالسهم

---

(١) لافيس ، ج ٢ ، ص ٣٤٦

الواحد : عامله المحتسب، والقوى به فى سبيل الله أى والرامى به فى سبيل الله »[1] .

كانت تلك هى أسلحة الحرب الهجومية : القوس، والرمح ، والسيف. ويحسن أن نضيف إليها ، استكمالاً للقائمة ، آلة لقذف الأحجار استعملها العرب منذ القرن السابع ولم تظهر فى أوربا إلا فى القرون الوسطى[2]. فالمؤرخون يقولون لنا إن النبى قد استخدم «المنجنيق» ضد أهل « الطائف». ومهما يكن من صحة هذه الرواية ، فإننا نستخلص من عدة مواضع فى كتاب « الأغانى » أن استخدام المنجنيق كان جد شائع فى القرن التاسع . ويصور لنا أبو الفرج على الخصوص فى حديثه عن حصار هرقلية — هارون الرشيد « وهو يأمر بأن تصلى المدينة أحجاراً ونيراناً بالمنجنيقات»[3]

ومعروف من ناحية أخرى أن العرب قد أخذوا عن الإغريق نارهم التى تشتعل فوق الماء لضرب السفن ، ولكن هل هم الذين ابتكروا بارود المدفع ، أم ترى أخذوه عن الصينين ؟ ربما كان البارود الذى استنبطه الراهب « شوارتز » اختراعاً ألمانياً كاختراع الغازات السامة . . . يا طالما أثيرت هذه الأسئلة دون أن يجد سائلوها الجواب اليقين ، ويا لطول ما سوف تثار كذلك . . .

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) ديماى ، ص ٥٤ .

(٣) الأغانى ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

وأما فى مضمار الأسلحة الدفاعية ، فليس هناك ما يستوجب أن نخصه بالذكر . فقد عرف العرب منذ أقدم العصور — بفضل جوارهم للفرس وعلاقاتهم المتصلة بهم[1] — الدرع الضافية التى استخدمت فى أوربا إبان القرون الوسطى . واتخذوا المجن من الخشب ومن الجلد وفى آخر الأمر من المعدن كما اتخذوا خوذات سموها « البيض » — جمع بيضة — لشكلها البيضاوى ، ثم اتخذوا زرداً دقيقة الصنع نسبوها إلى فرعون تارة وإلى داود وسليمان تارة أخرى .

ويقول جوتييه « لا بد أن الزرد الذى استخدمه مقاتلو القرون الوسطى الأوربيون قد اشتق من ذلك الإهاب الذى كانت تحاك عليه حلقات معدنية ، ثم خطر لهم يوماً أن يدخلوا بعض هذه الحلقات فى بعض أى أن يزردوها ، فانتهوا إلى كساء جديد أغناهم عن الإهاب المسدل تحته ، وهكذا ابتدعوا الزرد . ولعلنا قد سلكنا فى ذلك طريقاً آخر ، فأخذنا الزرد عن العرب الذين عرفوه قبلنا ، ومن هنا كان ذكر الزرد العربية فى ملحمة « رولان » (البيت رقم ٩٩٤) وغيرها »[2].

ونحن نرجح المذهب الأخير ، لأن استخدام الزرد بصورته الحقيقية — وقد غدا أهم سلاح دفاعى لدى جميع الفرسان — لم يعم إلا خلال

---

(١) يذكر شاتوبريان فى الحديث الرابع من كتابه « دراسات تاريخية » أن الرومان قد أخذوا عن الفرس الدروع الضافية ، فعرفت بذلك قبل ظهور الفروسية .

(٢) جوتييه ، ص ٧١٧ .

النصف الأول من القرن الثانى عشر[1] ولأنه لا مجال للشك من ناحية أخرى فى أن العرب عرفوا الزرد ، وأتقنوا صناعتها قبل بداية القرن السادس. وحسبنا أن نستدل على ذلك من نص « الأغانى » الذى يسرد الطرف التى عهد بها امرؤ القيس للسموءل، نحو سنة ٥٢٧ : « . . . . وكان أثمن ما يقتنيه امرؤالقيس خمس دروع : الفضفاضة والصافية والمحسنة والخريق وأم الديول ، وكانت منذ وقت طويل ملكاً للأمراء من آل عقيل الذين كانوا يتناقلونها من أب إلى ولد .»[2]

والآن — وقد استعرضنا أسلحة الهجوم والدفاع — لعلنا لا نخرج عما نحن بصدده إذا ما تساءلنا عن رأى العرب فى الحرب . أجل ، لقد أولع هذا الشعب المقاتل بالحرب لذاتها .. لما يسرى فى نفوسهم من نشوتها ، عند اصطكاك السيوف والرماح ، وعند تجلى آيات البطولة والشهامة ، وعند العودة منها بحصاد المجد والشرف ، ولكنهم ما كانوا لذلك كله بالغافلين عن فظائعها ووبالها ، فها هو ذاك زهير يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمـــو وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمة وتضرى إذا ضريتموها فتضرم

---

(١) جوتييه ص ١١٧ ، ديماى ص ١١٢ ، ويقول لافيس « حل الزرد محل الإهاب حوالى سنة ١٠٦٦ » .

(٢) وفات الأغانى ، جـ ٢ ، ص ١٧ .

فتعرككم عرك الرحا بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وها هى ذى بعض التعريفات :

يقول معاوية : « إن الحرب أولها نجوى ، وأوسطها شكوى ، وآخرها بلوى » .

وسأل عمر يوماً عمرو بن معدى كرب :

– يا أبا ثور ، صف لى الحرب .

فضحك ثم قال :

– لقد سألت عنها خبيراً بها . هى والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق ، إذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن ضعف فيها تلف ، ولقد قال فيها واصفها (امرؤ القيس) فأجاد :

الحرب أول ما تكون فتية تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل[1]

ومع ذلك فإن امرأ القيس لم يبلُ إلا حرب ما قبل الإسلام . وما كانت تلك العجوز الشمطاء مروعة بشعة إذا نظرنا إلى عدد الضحايا ، فهذه حرب البسوس التى امتدت أربعين عاماً على أقل تقدير والتى كانت من

---

(١) المسعودى ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

أطول حروب التاريخ وأشدها سفكاً للدماء حسب شهادة شعراء العصر ، لم ينشب فيها — من أولها إلى آخرها — سوى خمس معارك ! لقد اشترك فيها ثلاثة أجيال من الرجال ، فماذا كانت النتائج ؟ قرابة ثلاثين ساعة فى ميدان القتال ، ونحو مائة قتيل ، وبضع مئات من أبيات الشعر[1].

على أن تعظيم الخيل والأسلحة ، بالإضافة إلى روح التنافس الذى تميز به العرب القدماء ، قد أنشأ بينهم أخلاق الفروسية من ناحية وأذكى فيهم الشغف بالقتال الفردى من ناحية أخرى . ذلك أنه من العسير فى معمعة الوغى أن توجه العناية إلى ملاحظة امتياز المقاتل ، إذ يستغرق العراك نشاط المرء ، ويشغله الاهتمام بحسن بلائه عن استعراض ما يحرزه رفاقه من ضروب الاستبسال ، بينما تتيح المبارزات الفرصة لذلك ، فيتجلى ما يفخر به الفارس من براعة وشجاعة ، ومن فضل يظهره جواده ، ومن ترف يلمع فى سلاحه ، ومن إعجاب الشهود به وثنائهم عليه .

ولم يكن ذلك فى واقع الأمر سبب قيام الفرسان بالمبارزات ، ففى أوربا كان الفرسان إذا أعوزتهم الحرب ينظمون مباراة فيما بينهم . وكانت المباراة قبل كل شىء فرصة لهم سانحة — لا للإبداع أو التدرب أو تعليم الناشئة — بل للتقاتل . فقد كانوا يستسلمون فى خلاء الريف لمعارك حقيقية مرتبة الصفوف ، تسفر عن قتلى ، وجرحى ، وأسرى تجب عليهم الفدية[2]

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ، ص ٧٤ .

(٢) ديماى ص ٥٤ ، جوتييه ص ٦٧٩ وما يليها .

ثم تطورت المباريات فأصبحت اجتماعية إنسانية ، تدور قرب قصر من القصور ،وتشهدها سيدات نسيبات ، وتسبقها الأناشيد والأشعار والمنافرات وتحل فيها محل الرماح والسيوف أسلحة ودية[1].

وأما فى بلاد العرب فلم توجد نظم تشبه هذه الحروب وتلك المباريات ، فما كانت بالعرب حاجة إلى « تنظيم حرب » وهم الذين يعيشون فى حرب دائمة بين بعضهم وبعض . وهكذا لم تكن تحين لهم مناسبة إظهار براعتهم وشجاعتهم فى كل يوم فحسب ، بل فى كل لحظة من لحظات اليوم . ومن ناحية أخرى كان أسلوبهم فى القتال يتيح لهم متعة التبارز فى ميدان القتال واحداً ضد واحد ، أو اثنين ضد اثنين ، أو واحداً ضد عشرة أحياناً ، على مرأى من الجيشين الشاهدين . وكانت المعارك العربية كالمباريات تسبقها المنافرة . فقد كان أحد المقاتلين ينفصل عن رفاقه فى السلاح ويتقدم حتى يبلغ خطوط العدو ، فيستثير مقاتلا بعينه يرى أنه جدير به ، أو يصيح متحدياً «هل من منازل كفء لى ! » . وكان الاستنفار فى العادة ببيت أو أبيات من الرجز ، يهدد فيها قائلها بالموت السريع الرهيب ذلك الخصم الذى قد يدفعه الجنون إلى منازلته . وفى الحال ينبرى من معسكر العدو شجاع يرد على التحدى بأبيات من نفس البحر ونفس القافية ونفس الإفراط فى التهديد ، ومن ثم يبدأ النزال . . . . ولقد ظلت هذه العادة الممعنة فى القدم سائدة إبان حروب الإسلام ، ولم تزل متبعة

(١) سيوف بلا نصال ورماح بلا اسنة .

فى « ساراجوس » خلال القرن الحادى عشر . فهذا هو الطرطوشى يحدثنا عن مقاتل احترف الاستنفار فيقول : « كان فى « ساراجوس » فارس يدعى ابن فطوم ، لم يكن يضارعه فى الشجاعة عربى ولا بربرى ، حتى ليروى أن الأسبانى كان إذا راح يسقى حصانه فأبى الحصان أن يشرب قال له : اشرب ! أم تراك رأيت ابن فطوم فى الماء ؟ »[١]. وإلى هذه المنافرات وتلك المبارزات يشير « ماران » — عند ما يصف المشاهد الطريفة التى جرت بين المسيحيين والمسلمين أثناء حصار « بطليمائس » سنة ١١٨٩ — بقوله :

« لما كان الفرنجة والأندلسيون قد اعتادوا أن يرى بعضهم بعضاً — وكأنهم فى ذلك أبطال « هومير » — فقد تقاربت صفوفهم دون أن يعتورهم خوف ، وتبادلوا الكلام ثم القدح ثم الثأر بالسلاح . وكان النزال — الذى يظن أن العرب قد ابتكرته — متبعاً فى تلك الأيام[٢]. وكان المسيحيون والمسلمون يتبارون فى هذا الفن من العراك تحت أسوار بطليمائس . وما كان البطلان يتشابكان بالأيدى إلا بعد أن يتخاطبا ، وكان المغلوب يؤسر أو يفتدى . بل لقد استدعوا الأطفال ليتبارزوا أحياناً . ولقد بلغ من

---

(١) دوزى : « أبحاث فى تاريخ اسبانيا وأدبها » ج ٢ ص ٦٥ وما يليها . وانظر « المستطرف » .

(٢) يردد كثير من كتاب التاريخ فى القرون الوسطى أن جوفروا دى برويى Geoffroy de Preuilly المتوفى عام ١٠٦٦ هو الذى ابتكر المبارزة. راجع جوتييه ص ٦٧٥ .

الألفة بين الشعبين المتخاصمين ، أن الفرنجة كثيراً ما كانوا يرقصون على أنغام يعزفها العرب ، ثم ينشدون ليرقص العرب على ألحان أناشيدهم . وتعيننا مثل هذه التفاصيل التي قد تبدو ضئيلة على التأريخ للأخلاق»[1]. ويالها من أخلاق بديعة !

ولقد أسلفنا القول بأن العرب لم يزاولوا المباريات على الطريقة الأوربية ، بمعنى أنهم لم يخوضوا فى داخل القبيلة وفى وقت السلم مبارزات بين بعضهم وبعض يتبادلون فيها الموت والجراح . فما كانوا ينازلون إلا العدو فى ميدان القتال ، بيد أنهم كانوا يلعبون ألعاباً حربية — لا خطر فيها — ليدربوا جيادهم ويتدربوا على استعمال الأسلحة ، كما كانوا يعرفون رياضة المصارعة والمبارزة . . . دون سفك الدماء . وتنبئنا هاتان النادرتان اللتان ننقلهما عن كتاب « الأغانى » بما يغنينا عن الإطناب فى التعليق على ألعاب العرب ومقاتلاتهم الفردية . أما الأولى فتروى لنا التحاماً بين شاعر وغرير من أجل امرأة :

« فى ذلك الزمن لم يكن الشاعر جميل قد باح بحبه لبثينة . وحدث أن « توبة » مر فى طريقه إلى الشام بقبيلة بنى عذرة فلفت نظر بثينة ، مما أثار غضب جميل فصاح به :

— من أنت ؟

— إنى توبة بن الهامر .

---

(١) مارلان ج ٢ ص ١٨١ .

— إنى أدعوك إلى مبارزتى فى المصارعة والرماية والسباق .

فقبل توبة وتمنطق بوشاح أحمر أخذه من يدى بثينة . وانبرى لخصمه . وصارعه جميل فلم يلبث حتى غلبه ، ثم تناول كل منهما قوسه فغلبه جميل كذلك ، ثم تسابقا فسبقه جميل . فقال توبة :

— إن محضر هذه المرأة يجعلك غلاباً ، فلننزل إلى الوادى ونعد الكرة . . .

وبعيداً عن عينى بثينة هُزم جميل فى السباق والرماية والمصارعة» .

وها هى ذى النادرة الثانية :

« سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من أشجع من رأيت ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أحيل الناس وعن أشجع الناس وعن أجبن الناس . فقال عمر : هات .

قال : . . . فمضيت حتى اشتمل علىّ الليل . فوالله إننى لأسير فى قمر باهر كالنور الظاهر ، إذا بفتى على فرس يقود ظعينة وهو يقول :

يا لدينا يا لدينا ليتنا يعدى علينا

ثم يبلى ما لدينا

ثم يخرج حنظلة من مخلاته ثم يرمى بها فى السماء فلا تبلغ الأرض حتى ينظمها بمشقص من نبله . فصحت به : خذ حذرك ثكلتك أمك ، فإنى قاتلك . فمال عن فرسه ، فإذا هو بالأرض . فقلت : إن هذا الاستخفاف .

فدنوت منه وصحت به : ويلك ما أجهلك ! فما تخلخل ، ولا زال حتى شككت بالرمح فى إبهامه ، فإذا هو كأنه قد مات منذ سنة . فمضيت وتركته ، فهذا أجبن الناس .

ثم مضيت فأصبحت بين دكادك ، فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها ، فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن من نجوم الثريا ، فبكين حين رأينى ، فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك ، ومن ورائنا أخت لنا أجمل منا . فأشرفت من مرقد ، فإذا بشخص لم أر شيئاً قط أجمل من وجهه ، وإذا بغلام يخصف نعله ، عليه ذؤابة يسحبها ، فلما نظر إلى وثب على الفرس مبادراً ، ثم ركض فسبقنى إلى البيوت . فوجدهن قد ارتعن ، فسمعته يقول لهن :

مهلا نسياتى إذا لا ترتعن إن منع اليوم نساء تمنعن
أرخين أذيال المروط وارتعن

قال : فلما دنوت منه قال : أتطرد لى أو أطرد لك ؟ فقلت : بل اطرد لى ، فركض وركضت فى إثره حتى أمكنت السنان من لفته (واللفتة أسفل الكتف) واتكأت عليه ، فإذا هو والله مع لَبَب فرسه ، ثم استوى فى سرجه فقلت : أقلنى . فقال : اطرد ! حتى إذا ظننت أن السنان بين ناصيته اعتمدت عايه ، فإذا هو والله قائم على الأرض والسنان زالج ،

فاستوى على فرسه ، فقلت : أقلى ، قال : اطرد ، فطردته ، حتى إذا أمكنت السنان من متنه اتكأت عليه وأنا أظن أنى قد فرغت منه ، فمال فى سرجه حتى نظرت إلى بدنه فى الأرض ومضى السنان زالجاً ، ثم استوى على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا لى ؟ ثكلتك أمك ! فوليت وأنا مرعوب منه ، فلما غشيني ، وحدت حس السنان ، فالتفت ، فإذا هو يطردنى بالرمح بلا سنان ، فكف عنى واستنزلنى ، فنزلت ونزل والله وجز ناصيتى وقال : انطلق ، فانى أنفس بك من القتل . فكان ذلك والله يا أمير المؤمنين عندى أشد من الموت ، فذلك أشجع من رأيت . وسألت عن الفتى فقيل ربيعة بن مكدم من بنى كنانة »[1] .

ولقد وجدت بين أبطال العرب عهود وأحلاف حربية تشبه إلى حد ما تلك الروابط التى وحدت بين دوجسكلان Du Guesclin وكليسون Clisson ، وبين باسومبيير Bassompierre وشومبرج Schomberg[2] ولا حاجة بنا إلى الإطالة فى موضوع يعرفه الجميع .

جملة القول إذن أن العرب فى كل العصور قد عظموا الفرس وعظموا الأسلحة ، وبلغوا — بالتربية الصارمة والتدريب اليومى والاعتناء الذكى المخلص — فى فن الحيل وفن صياغة الأسلحة واستعمالها شأواً من الإتقان يجاور حد الكمال .

---

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ١٣١ .

(٢) لاكورن دى سانت بالاى ، جـ ١ ، تعليقات ص ٢٧٢ وما يليها .